يكون بينهن من تنافس وتباغض وخصام، وبين هؤلاء الصبية الذين يكثرون في كل يوم ويَنبتون كما ينبت العشب في الأرض، لا يدري كيف جاءوا.

فأما أبوه فقد كان عطوفًا عليه حفيًّا به أيام محنته، فلما بَعُدَ بها العهد، شُغل عنه بهذه الهموم الكثيرة التي لا يتركها في الدار إذا غدا إلا ليلقاها في المتجر، ولا يتركها في المتجر إذا راح إلا ليلقاها في الدار، وهو سعيد كل السعادة أن تركت هذه الهموم له طريقه حرة بين داره ومتجره، لم ينتظره في هذا الثِّني أو ذاك من أثناء الطريق، ولم يخرج له بعضها من هذا العطف أو ذاك من أعطاف المدينة. فهذا نوع من الشعور الذي كان يجده خالد عندما آب من القاهرة، ولكنه كان يجد نوعًا آخر من الشعور ليس أقل من هذا النوع تأثيرًا في قلبه وفي حياته العاملة بنوع خاص. فقد كان يشعر كأن حملًا ثقيلًا أُلقي عن عاتقه، وكأن شيئًا من الراحة والأمن رُدَّ إلى قلبه، ذلك أن لقاءه امرأته كل يوم مصبحًا وممسيًا، ونظره إلى ابنتيه وما كان بينهما من اختلاف، وموازنته بين ابنتيه وأمهما، كل ذلك كان يسوءه ويؤذيه، فقد أراحه الله من هذا السوء وردَّ عنه هذا الأذى، وأتاح له حياة فارغة، تؤذيه من غير شك، ولكن لا كما كانت تؤذيه حياته تلك الملأى.

وكذلك كان خالد يضطرب بين الحزن والرضا، وبين القلق والأمن، وكان إذا أحس الرضا صلى ودعا وقرأ القرآن حامدًا لله على نعمته، وإذا أحسَّ السخط صلى ودعا وقرأ القرآن مستعينًا بالله على نقمته، وكان أشد ما يخاف أن يغري به الشيطان في وحدته على نحو ما كان يغري به قبل أن ترحل عنه زوجه، فكان يُكثر من القراءة والدعاء والصلاة تحصنًا من هذا الشيطان، ولكن الله صرف عنه الشيطان صرفًا تامًّا، فكانت وحدته نقية حتى من التفكير في الإثم، وكانت عزلته طاهرة حتى من الشعور بأن له غرائز يجب أن تُرضى، وقد همَّ أن يستأنف حياته الأولى، فيختلف إلى المساجد، ويتبع حلقات الذكر ويواظب على مجالس الوعظ، ولكنه لم يجد من نفسه نشاطًا إلى هذه الحياة، وإنما وجد من نفسه شوقًا إلى عمل أحسن غناء وأقرب نفعًا من هذه الحياة المشردة، وقد أُلقي في روعه أنَّ التقرب إلى الله لا يكون بالاختلاف إلى هذه المساجد والحلقات ومجالس الدرس والوعظ فحسب، وإنما يمكن أن يكون بأن يظل الإنسان على ذكر من ربه دائمًا، يذكره إذا خلا إلى نفسه، ويذكره إذا لقي الناس، ويذكره حين يقدم على العمل أو يحجم عنه، فتكون خشيته لله هي التي تحمله على الإقدام أو الإحجام، وكان خالد على ذكر من ربه دائمًا، حتى إن أيسر انفعالاته كان يترجم عنه بهذه الكلمات التي تجري بها ألسنة الناس كثيرًا، ولكنها لا تصدر عن قلوبها إلا قليلًا، فكان إذا أنكر شيئًا أو أسخطه شيء